المحاورات الشعرية والمخاطبة بالشعر في الأدب العربي

إعداد:

د. الأصم بشير التوم بشير

أستاذ مساعد بجامعة الخرطوم – كلية التربية، قسم اللغة العربية

مجلة كُلِّيَّة التربية
جامعة الخرطوم

العدد الثامن عشر
السنة الثالثة عشرة
سبتمبر 2021م

مستخلص

هدف هذا البحث إلى الوقوف على جملة من نماذج التحاوُر بالشعر، مشافهةً ومكاتبةً، بغرض التعريف بهذا النوع من التعامل بالشعر عند العرب، وتكمن أهمية الدراسة في أنها تلفت النظر إلى نماذج راقية من الشعر أملتْها مشاعر مختلفة، وظروف خاصة. اتبع الباحث المنهج الوصفي، حيث تم جمع النماذج الشعرية من مظانّها المختلفة، ومن ثمَّ تبويبها والتعليق عليها؛ مما أوصل لنتائج من أهمها: إنَّ المحاورة بالشعر تدل على صفاء القريحة والتمكن من ناصية الشعر، كما تدل على مكانة الشعر في نفوس العرب واحتفائهم به. تنوعت طرق التحاوُر بالشعر بين التمثُّل بأشعار الآخرين، وارتجال الشعر، والإجازات الشعرية، والمكاتبات. تعددت المصادر التي حوت هذه المحاورات بين مصادر التاريخ والسِّيَرِ والتراجم والأدب العربي. لم ينحصر التحاور بالشعر على الشعراء المنشغلين بنظم الشعر المشهورين به، بل تعداهم للخلفاء وزوجاتهم وجواريهم، والأعراب الذين لم تُروَ لهم أشعار معروفة. تنوع الرد على المبتدئ بالحوار الشعري بين الموافقة في الروي والوزن وعدد الأبيات وبين المخالفة في ذلك، إلا أن معظم المحاورات كانت متوافقة في الوزن والرَّوِيّ.

الكلمات المفتاحية:

محاورة – الشعر العربي. نماذج شعرية

Abstract

The study aimed to investigate various models of written and spoken poetic debates, in order to recognize this kind of treatment with poetry in the Arab. This study is significant since it draws attention to the elegant models of poetry imposed by different emotions and special circumstances. The researcher followed the descriptive method; poetic models were collected from various sources and then classified and commented on, which revealed findings most important of them are: that debating with poetry indicates a purity of talent and ability in poetry; it also shows the status and the value of poetry in the Arabic. There were various ways of poetic debates such as exemplifying with poetry of others, improvising poetry, poetic messages and writings. The sources that contained these debates varied between historical sources, biographies and Arabic literature. Poetic debating was not only prevalent among famous poets, but also among caliphs, their wives, maidservants and the nomads who did not receive narration of formal poetry. The response to an initiator of poetic debate varied in terms of conformity to rhyme, meter and the number of verses and vice versa. However, most of the debating poems were in conformity in rhyme and meter.

Keywords:

debates - Arab poetry - poetry models

مقدمة

إنَّ المطَّلع على الشعر العربي في مظانِّه المختلفة يلاحظ بوضوح أنَّ العرب كثيراً ما كانت تتخاطب بالشعر وتتحاور به؛ وهذا يدلُّ على أمور منها احتفاء العربِ بالشعر، وإعلائهم من شأنه، واهتمامهم به، وتفضيلهم إياه على الكلام المنثور، كما يدلُّ ذلك أيضاً على التمكُّن من ناصية البيان؛ إذ إنَّ الشعر محكوم بقواعدَ وضوابطَ لا بدَّ من استيفائها، وهذا لا يمكن أن يتأتى للمرء في كثير من المواقف إلا إذا كان مِمَّن خلُصوا إلى مَراقٍ عالية من الذوق والبيان، يضاف إلى ذلك أنَّ الحوار الشعريَّ دليلٌ على سرعة البديهة وحِدَّة الخاطر، سواءٌ في ذلك مَن يحاور بشعر يحفظه، ومَن يرتجله ارتجالاً، ويريد الباحث من خلال هذه الورقة أنْ يقف عند الحوارات الشعرية عند العرب، والمكاتبات التي كانت تُرسل شعراً؛ وذلك بهدف جمع طيف واسع من تلك الأشعار، ودراستها، مع إبراز القيمة الفنية والإبداعية لهذا الضَّرب من التعامل بالشعر.

تكمن أهمية هذه الورقة في كونها تتناول صورةً من صور ورود الشعر في كتب الأدب خاصة، وكتب التراث العربي والإسلامي بصفة عامة. والحوار بالشعر لا يجيء على نسق واحد وطريقة واحدة، وإنما تعددت طرقه بين حوار شعري ارتُجل فيه الشعر ارتجالاً، وآخر يكون فيه الشعر متمثَّلاً به ممَّا يحفظه المتحاوران أو أحدهما، وقد يظهر الحوار في الإجازات الشعرية، وكذلك يأتي في المكاتبات والرسائل بين من تفصل بينهم المسافات.

جاءت الورقةُ في أربعة مباحث، الأول منها: المحاورات الشعرية المرتجلة، والثاني: المحاورات الشعرية المُتَمَثَّل بها، والثالث: الإجازات الشعرية، والرابع: المكاتبات الشعرية، وذُيِّلت أخيراً بالخاتمة المتضمنة للنتائج.

وتسير الدراسة وفق المنهج الوصفي، حيث يورد النماذج الوافية لكل نوع من المحاورات والمخاطبات والمكاتبات بالشعر مع الدراسة والتحليل وصولاً إلى الخاتمة والنتائج.

المبحث الأول: المحاورات الشعرية المرتجلة

حفلت المؤلفات الأدبية والتاريخية بكثير من الحوارات الشعرية التي يُرتجل فيها الشعر ارتجالاً؛ مما يدلُّ على نباهة قائله، والملاحظ أن هذه الحوارات الشعرية المرتجلة لم تنحصر على أصحاب صناعة الشعر من الشعراء المشهورين بالنظم وتأليف الشعر، بل عُرِفت أيضاً عن الخلفاء والعلماء وغيرهم من ذوي الحسِّ الأدبي والثقافة والذوق.

فمن أقدم المحاورات التي يمكن الإشارة إليها ما جاء في خبر هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) للمدينة، فقد رُوي أنَّه بعد أن غادر النبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه خيمةَ أمِّ معبد أصبح صوتٌ بمكَّةَ عاليًا بينَ السَّماءِ وَالأَرضِ، يَسْمَعُونَهُ وَلا يَرَوْنَ مَنْ يَقُولُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: (ابن سعد، 1968م،231/1)

جزى اللهُ ربُّ الناس خيرَ جز ائه رفيقين حَلَّا خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بِالْبِرِّ وَارْتَحَلا بِهِ فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَالَ قُصَيٍّ مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمُ بِهِ مِنَ فِعَالٍ لا تُجَازَى وَسُؤْدُدِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَ إِنَائِهَا فَإِنَّكُمُ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ لَهُ بِصَرِيحٍ ضرّة الشاة مزبد
فَغَادَرَهُ رَهْنًا لَدِيهَا لِحَالِبٍ يَدِرُّ بِهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: (حسَّان، 1984م، 59)

لَقَد خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عُقُولُهُمُ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمًى، وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بُمُهْتَدِ؟
نَبِيٌّ يَرَى مَا لا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِي ضَحْوَةِ الْيَوْمِ أَوْغَدِ
لِتَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللَّهُ يَسْعَدِ
وَيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانَ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُسْلِمِينَ بِمَرْصَدِ

فهذه الأبيات فيها توافق في الوزن والقافية وبعض المعاني، فهي من بحر الطويل وروِيّ الدال.

وروَت المصادر في خبر كعب بن سوار الأزدي أنَّ امرأة أتت عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي اللَّهُ عنه، فقالتْ: يا أَميرَ الْمؤمنِين، إنَّ زوجي يصومُ النَّهارَ ويَقوم اللّيلَ، وأنا أكرهُ أَنْ أَشكوه وهو يعمل بطاعةِ اللَّهِ تعالى، فَقال لها: نعمَ الزَّوج زوجكِ، فجعلت تكرر عليه القول، وَهُوَ يُكَرِّرُ عَلَيْهَا الْجَوَابَ، فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ الأَزْدِيُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ تَشْكُو زَوْجَهَا فِي مُبَاعَدَتِهِ إِيَّاهَا عَنْ فِرَاشِهِ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: كَمَا فَهِمْتَ كَلامَهَا فَاقْضِ بَيْنَهُمَا، فَقَالَ كَعْبٌ: عَلَيَّ بزوجها، فأتي به، فقال له: امرأتك هذه تشكوك، قَالَ: أَفِي طعامٍ أَو شرابٍ، فقالَتِ الْمَرْأَةُ تَرْتَجِزُ: (وكيع، 1947م، 277/1)

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الْحَكِيمُ رَشَدُهْ أَلْهَى خَلِيلِي عَنْ فِرَاشِي مَسْجِدُهْ
زَهَّدَهُ فِي مَضْجَعِي تَعَبُّدُهْ نَهَارُهُ وَلَيْلُهُ مَا يَرْقُدُهْ
فَلَسْتُ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ أَحْمَدُهْ فاقض القضا يا كعب لا تردده

فقال زَوْجُهَا:

أَزْهَدَنِي فِي فَرْشِهَا وَفِي الْحِجَلْ أَنِّي امرؤ أذهلني ما قد نزلْ
فِي سُورَةِ النَّحْلِ وَفِي السَّبْعِ الطُّوَلْ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَخْوِيفٌ جَلَلْ

فَقَالَ كَعْبٌ:

إِنَّ لَهَا عَلَيْكَ حَقًّا يَا رَجُلْ تُصِيبُهَا فِي أَرْبَعٍ لِمَنْ عَقَلْ
فَاعْطِهَا ذَاكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعِلَلْ

فانظر كيف جاءت هذه القضية كلها شعراً، فللّه ما أقدرهم جميعاً على نظم الردّ شعراً معبراً عن الغرض!

ومن تلك المحاورات أنَّ أعرابياً دخل على معاوية فقال: (القاري البغدادي، ب ت، 13/2)

مُعَاوِيَ يَا ذَا الْفَضْلِ وَالْحُكْمِ وَالْعَقْلِ وَذَا الْبِرِّ وَالإِحْسَانِ وَالْجُودِ وَالْبَذْلِ
أَتَيْتُكَ لَمَّا ضَاقَ فِي الأَرْضِ مَسْلَكِي وَ أَنْكَرْتُ مِمَّا قَدْ أصبت به عقلي
فَفَرِّجْ كَلاكَ اللَّهُ عَنِّي فَإِنَّنِي لَقِيتُ الَّذِي لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي
وَخُذْ لِي هَدَاكَ اللَّهُ حَقِّي مِنَ الَّذِي رَمَانِي بِسَهْمٍ كَانَ أَهْوَنَهُ قَتْلِي
وَكُنْتُ أُرْجِي عَدْلَهُ إِنْ أَتَيْتُهُ فَأَكْثَرَ تِرْدَادِي مَعَ الْحَبْسِ وَالْكَبْلِ
فَطَلَّقْتُهَا مِنْ جَهْدِ مَا قَدْ أَصَابَنِي فَهَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ من العدل؟

فقربه معاوية وسأله عن خبره، فأخبره أن الوالي ابن أمِّ الحكم طلَّق عنه زوجته وتزوجها ظلماً، ثم اشتدَّ بكاء ذلك الفتى، ثم أنشأ يقول:

فِي الْقَلْبِ مِنِّي نَارٌ وَالنَّارُ فِيهَا شَرَارُ
وَالْجِسْمُ مِنِّي نَحِيلٌ وَاللَّوْنُ فِيهِ اصْفِرَارُ
وَالْعَيْنُ تَبْكِي بِشَجْوٍ وَدَمْعُها مِدْرَارُ
وَالْحُبُّ دَاءٌ عَسِيرٌ فِيهِ الطَّبِيبُ يَحَارُ
حَمَلْتُ مِنْهُ عَظِيمًا فَمَا عَلَيْهِ اصْطِبَارٌ
فَلَيْسَ لَيْلِي بِلَيْلٍ وَلا نَهَارِي نَهَار

فَرَقّ لَهُ مُعَاوِيَةُ وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ أُمِّ الْحَكَمِ كِتَابًا غَلِيظًا، وَكَتَبَ فِي آخِرِهِ يَقُولُ:

رَكِبْتَ أَمْرًا عَظِيمًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ أستغفرالله من فعل امرئ زان
قَدْ كُنْتَ تُشْبِهُ صُوفِيًّا لَهُ كُتُبٌ من الفرائض أو آثار فرقان
حَتَّى أَتَانِي الْفَتَى الْعُذْرِيُّ مُنْتَحِبًا يشكو إليَّ بحقٍّ غير بهتان
أُعْطِي الإِلَهَ عُهُودًا لا أَجِيشُ بِهَا أو لا فبرّئت من دين وإيمان
إِنْ أَنْتَ رَاجَعْتَنِي فِيمَا كَتَبْتُ بِهِ لأجعلنك لحماً عند عقبان
طَلِّقْ سُعَادَ وَفَارِقْهَا بِمُجْتَمَعٍ وَاشْهِدْ على ذاك نصراً و ابنَ ظبيان
فَمَا سَمِعْتُ كَمَا بُلِّغْتُ مِنْ عَجَبٍ وَلا فِعَالُكَ حَقًّا فِعْلَ فِتْيَانِ

فلما بلغه الكتاب طلقها وبعثها لمعاوية، وكتب في رده يقول:

لا تَحْنَثَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ أُوفِي بِعَهْدِكَ فِي رِفْقٍ وَإِحْسَانِ
وَمَا رَكِبْتُ حَرَامًا حَيْثُ أَعْجَبَنِي فَكَيْفَ سُمِّيتُ بِاسْمِ الْخَائِنِ الزَّانِ
وَسَوْفَ يَأْتِيكَ شَمْسٌ لا خَفَاءَ بِهَا أَبْهَى الْبَرِيَّةِ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانِ
حَوْرَاءُ يَقْصُرُ عَنْهَا الْوَصْفُ إِنْ وُصِفَتْ أَقُولُ ذَلِكَ فِي سِرٍّ وَإِعْلانِ

فلما جاءت المرأة ورآها معاوية أعجبته، وقال لزوجها: هل من سلوٍّ عنها؟ فقال: نعم إذا فرَّقتَ بين جسمي ورأسي. ثم قال:

لا تَجْعَلَنِّي وَالأَمْثَالُ تُضْرَبُ بِي كَالْمُسْتَغِيثِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ
أَرْدُدْ سُعَادَ عَلَى حَيْرَانَ مُكْتَئِبٍ يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتِذْكَارِ
قَدْ شَفَّهُ قَلَقٌ ما مِثْلُهُ قَلَقٌ وَأَسْعَرَ الْقَلْبُ مِنْهُ أَيَّ إِسْعَارِ
وَاللَّهِ وَاللَّهِ لا أَنْسَى مَحَبَّتَهَا حَتَّى أُغَيَّبَ فِي رَمْسٍ وَأَحْجَارِ
كَيْفَ السَّلْوُ وَقَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِهَا وَأَصْبَحَ الْقَلْبُ عَنْهَا غَيْرَ صَبَّارِ

فخيَّر معاويةُ المرأةَ بينه وبين زوجها فارتجزت تقول:

هَذَا وَإِنْ أَصْبَحَ فِي الْخِمَارِ وَكَانَ فِي نَقْصٍ مِنَ الْيَسَارِ
أَكْثَرُ عِنْدِي مِنْ أَبِي وَجَارِي وَصَاحِبِ الدِّرْهَمِ والدينارِ
أخشى إذا غدرت حرَّ النارِ

فقال معاوية: خذها لا بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَارْتَجَزَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ:

خَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ للأَعْرَابِيّ أَلَمْ تَرْقُوا وَيْحَكُمْ لِمَا بِي

ومثل هذه المحاورات الشعرية تدل على مكانة الشعر عند العرب، واحتفائهم به في كل الأمور؛ فالمظلوم طرح مظلمته بالشعر، والخليفة يتهدد واليه مستخدماً الشعر، والوالي يرد شعراً، والمرأة تجيب عن سؤال معاوية بالرجز، وهكذا إلى نهاية الحوار.

ومن لطائف ما ورد في أخبار العرب من محاوراتٍ ذلك المجلسُ الذي جمع بين مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير، فيذكر مروان بيتاً للشاعر لبيد ابن ربيعة، ثم يأتي ابن الزبير بما يراه أفضل من قول لبيد ويستمر الحوار بالشعر ارتجالاً حتى يسكت ابن الزبير. (ابن الجوزي، ب ت، 48/6)

ذكر مروان بيت لبيد: (لبيد بن ربيعة، 2004م، 56)

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوؤه يحورُ رماداً بعد إذْ هو ساطعُ

فقال ابن الزبير: لو شئت لقلت ما هو أفضل من هذا:

ففوّضْ إلى الله الأمورَ إذا اعترتْ وباللَّهِ لا بالأقربين لدافعُ

فقال مروان:

وداوِ ضميرَ القلبِ بالبرِّوالتُّقَى ولا يستوي قلبانِ قاسٍ وخاشعُ

فقال ابن الزبير:

ولا يستوي عبدان عبدٌ مكلَّمٌ عُتُلٌّ لأرحامِ الأقاربِ قاطعُ

فقال مروان:

وعبدٌ تجافَى جنبُه عن فِراشِهِ يبيتُ يناجي ربَّه وهو راكعُ

فقال ابن الزبير:

وللخيرِ أهلٌ يُعرَفون بهديهم إذا حجبتهم في الخطوب الجوامعُ

فقال مروان:

وللشرِّ أهلٌ يُعرَفون بشكلِهم تشيرُ إليهم بالفجورِ الأصابعُ

فسكت ابن الزبير.(ابن الجوزي، ب ت، 49/6)

ومن المحاورات ما يُنعى فيه أحدُ الشعراء لمحبوبته، حيث يخاطب الناعي المحبوبة بالشعر وترُدُّ عليه بالشعر كذلك، من ذلك ما جاء في خبر جميل بن مَعْمَر، المشهور بجميل بثينة، أنه لمَّا حضرته الوفاة وهو بمصر قال: من يُعلم بثينة؟ فقال رجلٌ: أنا. فلمَّا ماتَ صار الرجل إلى حيّ بثينةَ فقال: (ابن عساكر،1995م، 62/69)

بَكَرَ النَّعِيُّ وما كَنَى بجميلِ وثوى بمصرَ ثواءَ غيرِ قُفُولِ
بَكَرَ النَّعِيُّ بفارسٍ ذي همةٍ بطلٍ إذا حَمِلَ اللواءَ نديلِ

فخرجت بثينة مكشوفة الرأس، فقالت:

وإنَّ سؤالي عن جميلٍ لَساعةٌ من الدهرِما حانتْ ولا حانَ حينُها
سواءٌ علينا يا جميلَ بنَ معمرٍ إذا مِتَّ بأساءُ الحياةِ وليُنُها

وقد نُسب شعر هذا النعي هذا لجميل نفسه، وفيه بعض الزيادات (ابن قتيبة الدينوري، 1423هـ، 432/1) أي أن الرجل لم ينظم هذه الأبيات، وإنما نظمها جميل وأمره بحملها إلى حيّ بثينةَ، وهي مثبتة أيضاً في ديوانه (جميل، ب ت، 119) ومهما يكن من أمر فإنَّه يمثل نوعاً من التحاوُر بالشعر، ممَّا نحن بصدده.

وشبيه بذلك أيضاً ما جاء في خبر عروة بن حزام الشاعر، وذلك أَن عروة بْن حزام لما مَات

مَرَّ بِهِ رَكْبٌ فعرفوه، فلما انتهوا إِلَى منزل عفراء محبوبته صاح بَعْضهم، فَقَالَ: (ابن الجوزي، ب ت، 269/4)

ألا أيُّها القصرُ المُعَقِّلُ أهلها بحقٍّ نَعينا عروةَ بْنَ حزامِ

فأجابته فقالت:

ألا أيها الركبُ المخبُّونَ ويحكم بحقٍّ نعيتُم عروةَ بنَ حزامِ؟

فأجابوها:

نعم قَدْ تركناه بأرضٍ بعيدةٍ مقيماً بها فِي دكدكٍ وأكامِ

فقالت لهم:

فَإِن كَانَ حقا مَا تَقُولُونَ فاعلموا بأن قَدْ نعيتم بدرَ كُل ظلامِ
فلا لقي الفتيان بعدك لذةً ولا رجعوا من غيبةٍ بسلامِ
ولا وضعت أنثى تماماً بمثله ولا فرحت من بعده بغلامِ
ولا لا بلغتم حيث وجهتم لَهُ ونُغِّصْتُم لذاتِ كُلِّ طعامِ

ورُوِيَ أن رجلاً من أهل البصرة كانت له جارية يحبها وتحبه، فاضطرَّه الفقر إلى بيعها، فاشتراها منه عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر والي البصرة، فلمَّا قبض الرجل الثمن وأراد الانصراف استعبر كلُّ واحد منهما إلى صاحبه شاكيا، فأنشأت الجارية تقول: (التنوخي،1978م، 239/4)

هنيئاً لك المال الذي قد حويتَه ولم يبقَ في كَفَيَّ غيرُ تذكري
أقولُ لنفسي وهي في غشيِ كربةٍ أقلّي فقد بان الحبيبُ أو اكثري
إذا لم يكن للأمرِ عندكِ حيلةٌ ولم تجدي شيئاً سوى الصبرِ فاصبري

فاشتد بكاء المولى ثم أجابها يقول:

فلولا قعودُ الدهر بي عنك لم يكن يفرّقنا شيءٌ سوى الموتِ فاعذري
أروحُ بِهَمٍّ في الفؤاد مبرّح أناجي به قلباً شديد التفكُّرِ
عليك سلامٌ لا زيارة بيننا ولا وصلَ إلا أنْ يشاءَ ابنُ مَعْمَرِ

فقال له ابن معمر: قد شئت، خذها ولك المال، فانصرِفا راشدين، فو الله لا كنت سببا لفرقة محبَّين. فانظر كيف غنِم هذا الرجل مالاً وافراً، وعاد ومعه جاريته التي يحبُّها، وكلُّ ذلك بفضل ما تحاورا به من شعرٍ صادقٍ، ارتجلاه في الحال تعبيراً عن مشاعر جاشت بها صدريهما، ولم يعيَ لسانهما عن ترجمتها، فكان ما كان.

كل تلك المحاورات جاءت ارتجالاً، وهي آية شاهدة على الحفاوة بالشعر والمقدرة على التعبير به عن جميع الأغراض، فرحاً وترحاً، رغبةً ورهبةً.

المبحث الثاني: المحاورات الشعرية المتمثَّل بها

ذلك بأن يكون الشعر الوارد في الحوار ليس مرتجلاً، وإنَّما هو شعر محفوظ يستدعيه المقام والمناسبة، من ذلك ما كان بين عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وبين زياد بن حنظلة التميمي، لمَّا دخل زيادٌ على عليّ يطلب منه التأنّي عن حرب بلاد الشام، وتمثل بقول لبيد بن ربيعة: (لبيد، 2004م، 110)

وَمَنْ لا يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضْرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ

فتمثل عليٌّ وكأنه لا يريده يقول: (التميمي، 1993م، 107)

متى تَجمَعِ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِماً وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ الْمَظَالِمُ

ورُوي أن هشام بن عبد الملك تمثَّل عند موت أبيه بقول عبدة بن الطبيب: (عبدة، 1971م، 10)

فما كان قيسٌ هلكُه هلكُ واحدٍ ولكنَّهُ بنيانُ قومٍ تَهَدَّمَا

فلطمه الوليد أخوه وقال: اسكت يا ابن الأشجعية؛ فإنك أحول أكشف تنطق بلسان شيطانك، ألا قلت كما قال أخو بني أسد بن حجر حيث يقول: (أوس بن حجر، 1979م، 122)

إذا مُقْرِمٌ منَّا ذَرَا حدُّ نابِهِ تَخَمَّطَ فينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ

قال: فقال مسلمة: فيم الصياح؟ إنكم إن صلحتم صلح الناس بكم، وإن فسدتم فالناس إلى الفساد أسرع، ثم قال: أوه، وأنشد: (القالي، 1926م، 149/2)

لقد أفسدَ الموتُ الحياةَ وقد أَتَى على يومه عِلْقٌ إليَّ حبيبُ
فإن تكن الأيام أحْسَنَّ مرةً إليَّ لقد عادتْ لهنَّ ذنوبُ
أتى دونَ حلوِ العيش حتى أمرَّه كروبٌ على آثارِهِنَّ كروبُ

فقال سليمان: ﴿ **إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون** ﴾ البقرة: 156

فهذا الحوار الشعري بين أبناء عبد الملك بن مروان اعتمد فيه كلٌّ منهم على ما يحفظ من شعر وليس ممَّا ينظمه، ومثل هذه المحاورات وإن كانت تدلُّ على بداهةٍ في سرعة الاختيار ودقته واستدعاء المحفوظ، إلا أنها تظل دون تلك المحاورات التي يرتجل فيها الشعر في وقت الحوار.

ومن المحاورات الشعرية ما يجمع بين التمثُّل والارتجال، من ذلك ما حدث بين الأمير عبد الله بن طاهر والي المأمون على الشام، وبين رجل يدعى أبا محلم، حينما كانا في سفر، فمرَّا على مدينة الريّ سحراً، فسمعا أصوات الأطيار والقماري، فقال عبد الله: للَّه درُّ أبي كبير الهذليّ حيث يقول:

ألا يَا حمَام الأيكِ إلفُك حاضرٌ وغصنُك ميادٌ ففيمَ تنوحُ؟

ثم قَالَ: يَا أبا محلم، هل يحضرك فِي هَذَا شيء؟ قال أبو محلم: أصلح الله الأمير! كبرت سني، وفسد ذهني، ولعل شيئاً أن يحضرني، ثم حضره شيء فقال: أصلح الله الأمير، قد حضر شيء، هل تسمعه؟ قَالَ: هات. فقال:

أفي كلِّ عامٍ غربةٌ وتُرُوْحُ أَمَا للنَّوى من ونيةٍ فنريحُ
لقد طَلَح البينُ المشتُّ ركائبي فهل يَبْلُغَنِّي البينُ وَهُوَ طليحُ
وذَكَّرني بالريِّ نوحُ حمَامةٍ فنحتُ وذو الشجوِ الحزينُ ينوحُ
عَلَى أنَّها ناحت ولم تذرِ دمعةً ونحتُ وأسرابُ الدموع سفوحُ
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامهُ فيحُ
عسى جودُ عبدِ اللهِ أن يعكس النَّوَى فنلقي عصى التطوافِ وهي طريحُ

فَقَالَ: يَا غلام أنخ، لا والله لا أجزت معي حافرا ولا خفًّا حَتَّى ترجع إِلَى أفراخك، كم الأبيات؟ فقال: ستة، فَقَالَ: يَا غلام أعطه ستين ألفا، ومركبا وكسوة. وودَّعه وانصرف. (الخطيب البغدادي، 2002م، 11/ 162).

المبحث الثالث: الإجازات الشعرية

من ذلك أنَّ الخليفة العباسي هارون الرشيد قال بيتاً من الشعر، وأراد أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه، وكان الوقت ليلاً، فَقَالَ: عليَّ بالعباس بن الأحنف، فلمَّا طُرِقَ العباس ذُعِرَ وفزع أهله، فلمَّا وقف بين يدي الرشيد قَالَ: وجهت إليك لبيتٍ قلتُه، ورمتُ أن أشفعه بمثله فامتنع القول عليَّ. فَقَالَ: يا أمير المؤمنين، دعني حتى ترجع إليّ نفسي، فإنّي تركت عيالي على حال من القلق عظيمة، ونالني من الخوف ما يتجاوز الحدَّ والوصف. فانتظر هنيهة، ثم أنشده: (الخطيب البغدادي، 2002م، 8/14)

جَنَانٌ قد رأيناها ولم نرَ مثلَها بشرا

فقال العباس: (الأحنف، 1954م، 128)

يزيدك وجهُهَا حسناً إذا ما زدتَه نظرا

فقال له الرشيد: زدني.

فقال الْعَبَّاس:

إذا ما الليلُ مالَ عليـ ك بالظلماءِ واعتكرا
ودجَّ فلم ترَ قمراً فأبرزْها ترَ القمرا

وكثيراً ما يحدث مثل هذا من الخلفاء، فقد نُقِلَ عن الشاعر الحسن بن عليٍّ المعروف بابن العلَّاف أنه قال: كنت ذات ليلة في دار المعتضد، وقد أطلنا الجلوس بحضرته، ثم نهضنا إلى مجلسنا من حجرة كانت مرسومة بالندماء، فلما أخذنا مضاجعنا، وهدأت العيون، أحسسنا بفتح الأبواب والأقفال بسرعة، فارتاعت الجماعة لذلك، وجلسنا في فرشنا، فدخل إلينا خادم من خدم المعتضد، فَقَالَ: إن أمير المؤمنين يقول لكم أرقت الليلة بعد انصرافكم فقلت:

ولمَّا انتهينا للخيالِ الّذي سرى إذِ الدارُ قَفْرٌ والمزارُ بعيدُ

وقد ارتج عليَّ تمامه فأجيزوه، ومن أجازه بما يوافق غرضي أجزلت له جائزته، وفي الجماعة كلُّ شاعر مجيد مذكور، وأديب فاضل مشهور، فأُفحمت الجماعة وأطالوا الفكر فقلت مبتدرا: (ابن العلَّاف، 1974م، 31)

فقلت لعيني عاودي النومَ واهجعي لعلَّ خيالاً طارقاً سيعودُ

فرجع الخادم إليه بهذا الجواب، ثم عاد إلي فَقَالَ: أمير المؤمنين يقول لك: أحسنت وما قصرت وقد وقع بيتك الموقع الذي أريده، وقد أمر لك بجائزة وها هي، فأخذتها وازداد غيظ الجماعة مني. (الخطيب البغدادي، 2002م، 375/8)

ومنها أن مُحَمَّد بن عَبْد اللَّهِ بن طاهر عزم على الحجّ، فخرجت إليه جاريةٌ شاعرةٌ، فبكت لما رأت آلة السفر، فقال مُحَمَّد بن عَبْد اللَّهِ: (القاري البغدادي،ب ت، 150/1)

دمعةٌ كاللؤلؤِ الرطْبِ على الخدِّ الأسيلِ
هطلتْ في ساعة البينِ من الطرْفِ الكحيلِ

ثم قَالَ لها: أجيزيني. فقالت:

حين همَّ القمرُ الزاهرُ عنَّا بالأُفولِ
إنَّما تُفتضَحُ العُشَّاقُ في يوم الرحيلِ

فهذا حضور بديهة ومقدرة على إجازة الشعر بما يناسبه وزناً وقافيةً ومعنى.

كذلك من الإجازات الشعرية أن الشاعر الحارث بن أبي العلاء أبا فراس الحمداني قال: (ابن الجوزي، ب ت، 227/12)

المرءُ نصبَ مصائبٍ لاتنقضي حتى يوارى جسمُه في رَمْسِهِ
فمؤَجَّلٌ يلقى الردى في غيرِه ومُعَجَّلٌ يلقى الردى في نَفْسِهِ

وكان عنده أعرابي فقال للأَعرابيّ: أجزْ هذا بمثله، فقال:

من يتمنَّ العمرَ فليدرعْ صبراً على فقدِ أحبائه
ومن يعاجلْ يرَ في نفسه ما يتمناه لأعدائه

وهذه الأشعار ليست في ديوان أبي فراس الحمداني، ولكنَّها مثبتة في كثير من مصادر الأدب العربي.

المبحث الرابع: المكاتبات الشعرية

شملت كتب الأدب والتاريخ والتراجم كثيراً من المكاتبات والمراسلات الشعرية، وهذه المكاتبات قد تحمل تعبيراً عن عاطفة معينة كالشوق أو الفقدان وغيره، وقد تحمل عتاباً بين محبّ وحبيبه، أو بين صديق وصديقه، وقد تأتي حاملة دعوة، أو مزاحاً لطيفاً بين الأصدقاء.

فمن المكاتبات التي جاءت تعبيراً عن الشوق ما كتبه الخليفة المهدي لجاريته الخيزران وهي بمكة، فقد كتب لها يقول: (ابن العمراني، 2001م، 70)

نحن فِي أفضل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ مَا نحن فِيهِ من أَهْل وُدِّي ... أنَّكم غُيَّبٌ ونحن حضور
فأَجِدُّوا فِي السير بل إن قَدِرْتُمْ ... أن تطيروا مَعَ الرياحِ فطيروا

فأجابته، أو قالت لمن أجابه:

قَدْ أتانا الَّذِي وَصَفْتَ من الشو ... قِ فكدنا وما فعلنا نطيرُ
ليت إنَّ الرياح كنَّ تؤدِيْ ... نَ إليكم مَا قَدْ يُجِنُّ الضميرُ
لم أزلْ صبَّة فإن كنتَ بعدي ... فِي سرورٍ فدام ذاك السرورُ

وشبيه بهذا الخطاب أيضاً تلك المكاتبة الشعرية التي حدثت بين الخليفة العباسي هارون الرشيد وجارية له تدعى ماردة، وذلك أنَّ الرشيد كان يحبها، وكان قد خلَّفها بالرِّقة، فلمَّا قدم بغدادَ اشتاقها فكتب إليها: (ابن الجوزي، ب ت، 183/10)

سلامٌ على النازح المغتربْ ... تحيةَ صَبٍّ به مكتئبْ
سأسترُ والسترُ من شيمتي ... هوى من أحبُّ بمَن لا أحبْ

فلما ورد الكتاب أمرت أبا حفص الشطرنجي بإجابته عنها، فأجاب:

أتاني كتابُك يا سيِّدي ... وفيه العجائبُ كلُّ العجبْ
أتزعمُ أنَّك لي عاشقٌ ... وأنَّك بي مستهامٌ وصَبْ
فلو كان هذا كذا لم تكن ... لتتركني نهزةً للكُرَبْ
وأنت ببغدادَ ترعى بها ... نباتَ اللذاذةِ مَعْ مَنْ تُحِبْ
فيا من جفاني ولم أجفُه ... ويا من شجاني بما في الكتبْ
كتابُك قد زادني صبوةً ... وأسعرَ قلبي بحرِّ اللهبْ

فهبني نعم قد كتمت الهوى فكيف بكتمانِ دمعٍ سربْ
ولولا اتقاؤك يا سيدي لو افتْك بي الناجياتُ النُّجُبْ

فلمَّا قرأ الرشيد كتابها أنفذ من وقته خادما على البريد حتى حدروها إلى بغداد في الفرات.

والملاحظ أنَّ مثل هذه المكاتبات تأخذ طابعاً متشابهاً، فهي تصدر عن خليفة يعبر عن شوقه لجاريته، فيأتي الردُّ من الجارية التي ينظم لها – في الغالب - شاعرٌ على لسانها؛ ذلك لأنَّ الخليفة يستطيع أن يطوع الشعر ليعبّر به عن وجدانه؛ لأن الخلفاء في تلك العصور كان آباؤهم يهتمون بتأديبهم وتعليمهم منذ الصغر، فهُ م أقدر على التفنُّن في القول والتعبير، أما جواريهم فلا يُتَوقَّع منهن أن يكنَّ مثلهم؛ ولذا تطلب بعض الجواري من أحد الشعراء أن ينظم الردَّ على لسانها.

هذا وإن عدم القدرة على التعبير من قِبَل النساء واستعانتهن بالشعراء للتعبير عمَّا يردن الإفصاح عنه- لأمرٌ لا يقتصر على الجواري غير العربيات الأصلِ بل يستوي معهن في ذلك مَن هي عربية عباسية، جدُّها لأبيها الخليفة أبو جعفر المنصور، وزوجها الخليفة هارون الرشيد، وابنها الخليفة محمد الأمين، فهذه زبيدة بنت جعفر ابن أبي جعفر تريد أن ترسل إلى الخليفة المأمون رسالة شعرية، تذكر فيها حالها بعد أن قُتِل ابنها الأمين، فلا تجد لذلك سبيلاً إلا أن تكل هذه المهمة إلى بعض شعرائها، فعمل لها رسالة شعرية تقول: (ابن الأثير، 1997م، 454/4)

لخيرِ إمامٍ قامَ من خيرِ عنصر وأفضلِ سامٍ فوقَ أعوادِ منبرِ
لوارثِ علم الأولين وفهمِهم وللْمَلِكِ المأمونِ من أمِّ جعفرِ
كتبت وعيني تستهلُّ دموعُها إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
وقد مسَّني ضرٌّ وذلُّ كآبةٍ وأرّق عيني يابن عمي تفكري
وهِمتُ لما لاقيت بعد مصابه فأمري عظيمٌ منكر جدُّ منكرِ
سأشكو الذي لاقيته بعد فقده إليك شكاة المستضيم المقهَّر
وأرجو لما قد مرَّ بي مُذ فقدته فأنت لبثّي خير ربٍّ مغيّرِ
أتى طاهرٌ لا طهَّر الله طاهراً فما طاهرٌ فيما أتى بمطهَّر
فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالي وأحرق أدوُري
يعزَّ على هارون ما قد لقيتُه وما مرَّ بي من ناقص الخلق أعورِ
فإن يكُ ما أبدى لأمرٍ أمرتَه صبرتُ لأمرٍ من قديرٍ مقدرِ
تذكَّرْ أمير المؤمنين قرابتي فديتك من ذي حرمةٍ متذكرِ

فلما قرأ الأبيات بكى وقَالَ: أنا واللهِ طالب بثأر أخي، قتل الله قتَلَتَه. وكتب إليها في ظهر رقعتها: (ابن الجوزي، ب ت، 130/10)

يعزُّ عَلَيَّ ما لاقيتِ فيه وأنتِ الأمُّ خيرُ الأمهاتِ
ولم أرضَ الذي فعلوا إليه من القتل المخالف والشتات
أمرتُ بأخذ هذا الأمرِ منه وقبضِ يديه عن تلك الهنات
وإني مثله لك فاعلميه على ما كان ما بقيتْ حياتي
وثأري بعد ثأر الله فيه سيذهب بالجبابرة العتاة
بنى لكِ جعفرٌ بيتاً منيعاً وشيَّده بأعلى المكرمات
أميرَ المؤمنين ورثتِ حقا وأنتِ أميرةٌ للمؤمنات

وهذه المكاتبة تختلف عن سابقتها في أنها كانت من زبيدة إلى الخليفة، أما ما قبلها فكان من أحد الخلفاء لإحدى جواريه، كما أنَّ هذا الحوار يختلف فيه الردُّ عن الرسالة في البحر الشعري، وفي الرويّ، وأما في المكاتبات الشعرية السابقة فيأتي الردُّ على البحر الذي جاءت عليه الرسالة وعلى الرويِّ نفسه.

ومن المكاتبات الشعرية ما يعبِّر عن علاقات إنسانية كريمة، تحمل معاني الكرم ومعاني العفة، فقد روَوا عن عليِّ بن جبلة بن مسلم الملقب بالعَكَوَّكِ الضرير المتوفى سنة 213هـ، أنه قال: كنت لا أدخل على أبي دلف إلا يلقاني بِبِرٍّ، فلما أفرطَ انقطعت عنه حياءً منه، فبعث إليَّ أخاه يقول: لم هجرتنا؟ فكتبت إليه: (ابن المعتز، ب ت، 171)

هجرتُك لم أهجرْك من كفرِ نعمةٍ وهلْ يُرتجَى نيلُ الزيادة بالكفرِ
ولكنَّني لما أتيتك زائراً فأفرطتَ في بِرّي عجزتُ عن الشكرِ
فمِ الآنِ لا آتيك إلا مسلما أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهرِ
فإن زدتني بِرّاً تزايدتُ جفوة فلا نلتقي طول الحياة إلى الحشرِ

فلما وصلت إليه كتب إليَّ:

ألا ربَّ ضيفٍ طارقٍ قد بسطتُهُ وآنستُه قبل الضيافةِ بالبشرِ
أتاني يُرَجِّيْني فما حال دونه ودون القِرى والعرف من نائلي ستري
فلم أعْدُ أن أدنيته وابتدأته ببشرٍ وإكرامٍ وبرٍّ على برّ
وَزَوَّدتُه مالاً يرجَّى نفاده وزوَّدني مدحاً يدوم على الدهرِ

فانظر إلى هذا اللطف المتدفق شعراً رائقاً رقراقاً، وإلى هذه النفوس التي تفيض سماحةً وعفةً، فلا تدري من أي الأمرين تعجب، من النفس الأبية الكريمة أم من روعة التعبير عمَّا يكنُّه كلٌّ منهما لأخيه.

ومن الأغراض التي تحملها تلك المكاتبات الشعرية الدعواتُ، ومن لطائف الدعوات دعوة جاءت إلى عبد الله بن المعتز عن طريق الخطأ، فلم يكن مقصوداً بها وإنما غلط الرسول

فجاءه بها، فنتج عنها مراسلة شعرية لطيفة، كانت الرسالة من رجل يُدعى أبا أحمد بن النجم إلى أخيه أبي القاسم، فلما جاء بها الرسول إلى ابن المعتز فقرأها وعلم أنها ليست له، قلبها وكتب على ظهرها: (الخطيب البغدادي، 2002م، 302/11)

دعاني الرسولُ ولم تدعُنِي ولكن لعلِّي أَبُو الْقَاسِم

فأخذ الرسول الرقعة ومضى وعاد عن قريب وإذا فيها مكتوب:

أيا سيداً قد غَدَا مفخراً لهاشم إذ هو من هاشِمِ
تَفَضَّلْ وصدِّقْ خطاء الرسولْ تفضُّلَ مولًى على خادم
فما إن تطاق إذا ما جددت وهزلُك كالشهد للطاعم
فدًى لك من كلّ ما تتقيهْ أَبُو أَحْمَدٍ وأبو الْقَاسِم

فقام ومضى إليه. ومثل هذا يدلُّ على نفوس طيّبة، تستطيع أن تصنع من مثل هذه المصادفات مواقف إنسانية خالدة، وموثقة بأجمل أسلوب وأعذبه.

وذكروا أنَّ الصاحب بن عبَّاد لما قدم البصرة في عام تسعة وسبعين وثلاثمائة، كتب إلى صديقٍ له يدعى أبا أحمد العسكري رقعةً يقول فيها:

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتُمُ ضَعُفنا فما نقوى على الوَخَدَانِ
أتيناكُمُ مِنْ بُعْدِ أَرْضٍ نَزُورَكُمْ فكم منزلٍ بكرٍ لنا وعوانِ
نناشدكم هل من قِرًى لنزيلكم بطول جوارٍ لا بملءِ جفانِ

فكتب أبو أحمد على ظهر الرقعة:

أرومُ نهوضا ثم يَثْنِي عزيمتي قُعُودٌ، وأعضائي من الرجفان
فضَمَّنْتُ بيتَ ابن الرشيدِ كأنَّما تعَمَّدَ تشبيهي به وعَناني
أهمُّ بأمرِ الحزم لو أستطيعُه وقد حِيْلَ بين العنزِ والنَّزَوَان

ثُمَّ تَحامَلَ ورَكِبَ بَغْلَتَهُ، وَصارَ إلى الصَّاحِبِ، فوَجَدَهُ مَشغولًا في خيمته بأبهة الوزارة، فصعدَ أَكَمَةً، ثُمَّ نادَى بِأعلى صَوتِهِ مُتَمَثِّلًا بِقولِ أَبي تَمَّامٍ:

مَا لِي أَرَى الْقُبَّةَ الْفَيْحَاءَ مُقْفَلَةً دُونِي وَقَدْ طَالَ مَا اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلَهَا
كَأَنَّهَا جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مُعْرِضَةً وَلَيْسَ لي عَمَلٌ زَاكٍ فَأَدْخُلُهَا

فَلَمَّا سَمِعَ الصَّاحِبُ صوتَهُ نادَاهُ: ادخُلْهَا يَا أَبا أَحمدَ، فَلَكَ السَّابِقَةُ الْأُولَى، فَلَمَّا صارَ إليه وقدم عليه، أكرمه وأحسن إليه. (ابن كثير، 2003م، 471/15).

وللصاحب بن عبَّاد أيضاً مراسلة شعرية أخرى مع قاضٍ يقال له العميري، وكان ابن عبَّاد يلقَّب بكافي الكُفاة، وقد أهدى إليه العميري كتباً، وأرسل معها أبياتاً، يقول فيها:

(الثعالبي،1983م، 231/3)

العُميريُّ عبدُ كافي الكُفاةِ وإنِ اعتُدَّ في وُجوهِ القضاةِ
خَدَمَ المجلسَ الرفيعَ بكتبٍ مُفْعَمَاتٍ من حسنِها مترعاتِ

فوقَّع تحتها:

قد قبلنا من الجميع كتاباً ورددنا لوقتنا الباقياتِ
لستُ استغنِمُ الكثيرَ فطبعي قولُ خُذْ، ليس مذهبي قولَ هاتِ

وتنوعت المناظرات المكتوبة التي تناثرت في مصادر التراث العربي، فتشمل الكثير من الأغراض والمعاني، من مدح، أو لوم، أودعابة ومزحة، ومنها ذلك المدح المطوَّل الذي كتبه العميد الفياض إلى أبي زكريا يحيى بن عليّ التبريزي المتوفى سنة اثنتين وخمسمائة للهجرة، وقد ردَّ عليه أبو زكريا بشعرٍ يعترف فيه بتقصيره وعجزه عن نظم الشعر.

كتب العميد الفياض يقول: (ابن خلكان، 1900م، 194/6)

قلْ ليحيى بنِ عليٍّ والأقاويلُ فنونُ
غير أنّي لستُ من يكْـ ـذِبُ فيها ويخونُ
أنت عينُ الفضل إن مُدْ دَتْ إلى الفضل العيونُ
أنت مَنْ عزَّ بِهِ الفضـ ـلُ وقد كان يهونُ
فقتَ مَنْ كان وأتعبـ ـتَ لَعَمْرِي مَن يكونُ
قد مضى فيك قران ومضى فيه قرونُ
وإذا قِيسَ بك الكلْـ ـلُ فَصَحْوٌ ودجونُ
وإذا فُتِّشَ عنْهُم فالأحاديثُ شجونُ
قد سمعنا ورأينا فسهولٌ وحزونُ
وَوَزَنَّا بك من كا نَ فقِيْلٌ وقيونُ
أين شيبان وفضل كل ما زال ظنونُ
إنَّك الأصل ومَن دو نَك في العلم غصونُ
إنَّك البحر وأعيا نُ ذوى الفضل عيونُ
ليس كالسيف وإن حُلْـ ـيَ في الحكم الجفونُ
ليس كالفذِّ المعلَّى ليس كالبيت الحجونُ
ليس كالجَدِّ وإن آ نَسَ هزل ومجونُ
ليس في الحسن سواء أبداً بِيْضٌ وجُونُ
ليس كالأبكار في اللُّطْـ ـفِ وإن راقتك عُونُ
قلت للحسَّاد كونوا كيف شئتم أن تكونوا

سبق الزائد بالفضـ ـل فعِزُّوا أو فهونوا
دمت ما خالف في الحـ ـدِّحـــــراك وســكـــونُ
وتلقاك المنى ما قرَّ بالطــير الوكــونُ
إن وُدِّي لك عمَّا يَصِـمُ الوُدَّ مـصـــونُ
ليس لي منه ظهورٌ تـتـــنـــافى وبــطـــونُ
بل لقلبي منه صبٌّ بالمـعـافـاة مــكــونُ
غلق الرهْن وقد يغْـ ـلقُ في الحَبِّ الرهونُ
ومن الناس أمينٌ في هـــــواه وخؤونُ

فكتب إليه أبو زكريا:

قل للعميد أخي العلا الفياضِ أنا قطرة من بحرك الفياضِ
شرفتني ورفعت ذكري بالذي ألبستنيه من الثنا الفضفاضِ
ألبستني حلل القريض تفضلاً فرفلت منها في علا ورياض
إني أتيتك بالحصى عن لؤلؤ أبرزته عن خاطر مرتاضِ
ولخاطري عن مثل ذاك توقف ما إن يكاد يجود بالأنقاضِ
أيعارض البحرَالغطامطَ جدولٌ أمْ درةٌ تُقتاس بالرضراضِ
يا فارس النظم المرصَّعِ جوهراً والنثرِ يكشف غمة الأمراضِ
يرمي به الغرض البعيد وقد غدا فكري يقصر عن مدى الأغراض
لا تلزمني من ثنائك مُوجباً حقاً فلست لحقِّهِ بالقاضي
ولقد عجزتُ عن القريض وربَّما أعرضتُ عنه أيَّما إعراضِ
أنعمْ عليَّ ببسط عذري إنني أقررت عند نداك بالإنفاض

ومن المراسلات الشعرية التي تحمل لوماً ما كتبه القاضي جعفر بن ورقاء، إلى صديقيه: القاضي أبي عمر، وابنه أبي الحسين، عندما تأخرا عن تهنئته بقدومه من الحجّ مع أخيه، فكتب إليهما يقول: (الخطيب البغدادي، 2002م، 81/13)

أأستجفي أبا عمر وأشكو وأستجفي فتاه أبا الحُسَيْنِ
بأيِّ قضية وبأيِّ حكمٍ ألحّا في قطيعة واصلينِ
فما جاءا ولا بعثا بعذرٍ ولا كانا لحقي موجبينِ
فإن نمسكْ ولا نعتبْ تمادى جفاؤهما لأخلص مخلصينِ
وإن نعتبْ فحقٌّ غيرَ أنا نُجِلُّ عن العتاب القاضيينِ

فوصلت الأبيات إلى أبي عمر، وهو على شغل، فأنفذها إلى أبي الحسين، وأمره بالجواب عنها،فكتب إليه:

تجنَّ واظلمْ فلستُ منتقلا عن خالص الوُدِّ أيُّها الظالمْ
ظننت بي جفوةً عتبت لها فخلتَ أني لحبلِكم صارمْ
حكمت بالظنِّ والشكوك ولا يُحْكَمُ بالظن فالهوى حاكمْ
تركت حقَّ الوداع مطّرحا وجئت تبغي زيارة القادمْ
أمران لم يذهبا على فطِنٍ وأنت بالحكم فيهما عالمْ
وكان هذا مقال ذي ثقةٍ وقلبه من جفائه سالمْ

هذا وإنَّ ألطف المحاورات المكتوبة ما جاء يحمل دعابة ومزاحاً؛ ذلك بأن فيه روحاً من الظرف والفكاهة، لا سيما إذا صدر عن شاعرٍ متفنّنٍ بارعٍ، فقد زار جماعة من الشعراء الشاعرَ نصر بن أحمد الخبز أرزي يهنئونه بالعيد ويتعرفون خبره، وهو يوقد السعف تحت الطابق، فزاد في الوقود فدخَّنهم، فنهضت الجماعة عند تزايد الدخان، فقال نصر بن أحمد لأبي الحسين بن لنكك- وكان من الجماعة-: متى أراك يا أبا الحسين؟ فقال له أبو الحسين: إذا اتسخت ثيابي. وكانت ثيابه يومئذ جُدَداً على أنقى ما يكون من البياض، فقال أبو الحسين ابن لنكك: يا أصحابنا، أن نصرًا لا يخلِّي هذا المجلس الذي مضى لنا معه من شيء يقوله، ويجب أن نبدأه، فجلس واستدعى دواة وكتب: (ابن الجوزي، ب ت، 25/14)

لنصر في فؤادي فرطُ حبٍّ أنيف به على كلِّ الصحاب
أتيناه فبخَّرنا بخوراً من السعف المدخِّن للثياب
فقمتُ مبادراً فظننت نصراً أراد بذاك طردي أو ذهابي
فقال متى أراك أبا حسين؟ فقلت له إذا اتسخت ثيابي

وأنفذ الأبيات إلى نصر فأملى جوابها، فإذا هو قد أجاب: (الخبزأرزي، ب ت، 92)

منحتُ أبا الحسين صميمَ وُدِّي فداعبني بالفاظٍ عِذابِ
أتى وثيابه كقتير شيبٍ فَعُدْنَ له كرِبْعَانِ الشبابِ
ظننتُ جلوسه عندي كعُرْسٍ فَجُدْتُ له بتمسيك الثيابِ
فقلت متى أراك أبا حسين فجاوبني إذا اتَّسَخَتْ ثيابي
فإن كان التقَزُّزُ فيه فخرٌ فَلِمْ يُكْنَى الوصيُّ أبا ترابِ؟

ومن المداعبات اللطيفة التي أُرسلت شعراً ما أرسله أبو إسحق إبراهيم ابن هلال الصابي، من الحبس إلى صديقه عبد الواحد بن نصر الشاعر الشهير بالببغاء، وكان قد زاره في محبسه، فبعث أبو إسحق للببغاء بهذه الأبيات: (الثعالبي، 1983م، 309/1)

أبا الفرجِ أسلمْ وابقَ وانعمْ ولا تزلْ يزيدُك صرف الدهرِ حظّاً إذا نقصْ
مضت مدة تستامُ وصلي غالياً فأرخصته والبيع غالٍ ومرتخصْ

وآنستني من مَحْبِسِي بزيارة ... شفتْ قَرَماً من صاحبٍ لك قد خلصْ
ولكنَّها كانت كحسوة طائرٍ ... فواقاً كما يستفرصُ السارق الفرصْ
وأحسبك استوحشت من ضيق موضعي ... وأوحشت خوفاً من تذكرك القفصْ
كذا الكُرَزُ اللَّمَّاحُ ينجو بنفسه ... إذا عاينَ الأشراكَ تُنْصَبُ للقنصْ
فحوشيت يا قُسَّ الطيور فصاحةً ... إذا أنشد المنظومَ أو درس القَصصْ
من المِنْشَرِ الأشغي ومن حزَّة الهدى ... ومن بندق الرامي ومن قَصَّة المقصْ
ومن صعدة فيها من الدهر لهذم ... لفرسانكم عند الطراشِ بها قعصْ
فهذى دواهي الطير وُقِّيْتَ شرَّها ... إذا الدهر من أحداثه جرَّع الغُصَصْ

فكتب إليه الببغاء جوابه: (الببغاء، 1834م، 42)

أيا ماجداً مُذْ يَمَّمَ المجدَ ما نكص ... وبدرَ تمام مذ تكامل ما نقصْ
ستخلص من هذا السرار وإيما ... هلالٌ توارى بالسرار فما خلصْ
برأفة تاج الملة الملك الّذي ... بسؤدده في خطه المشتري خصصْ
تقنصت بالإنصاف شكري ولم أكن ... علمت بأنَّ الحرَّ بالبرِّ يقتنصْ
وصادفتُ أدنى فرصة فانتهزتُها ... بلقياك إذ بالحزم تُنْتَهَزُ الفرصْ
أتتني القوافي الباهرات تحملت ... بدائعَ من مستحسن الجَدِّ والرُّخصْ
فقابلتُ زهر الروض منها ولم أُرع ... وأحرزت درَّ البحر فيها ولم أغصْ
فإن كنت بالببغاء قِدماً ملقباً ... فكم لقبٌ بالجورلا العدل مخترصْ
وبعد فما أخشى تقنُّصَ جارح ... وقلبك لي وَكْرٌ وصدرك لي قفصْ

فانتهى الابْتِدَاء والجَوَاب إلى عضد الدولة؛ فأعجب بهما واستظرفهما، وَكَانَ ذَلِك أحد أَسبَاب إِطْلَاق أبي إِسْحَاق من اعتقاله، ثمَّ اتَّصَلت بَينهمَا الْمُكَاتبَة والمودة.

هذه المحاورات الكتابية تظهر فيها براعة أصحابها في حسن الابتداء وحسن الرد، مع التزام الوزن والرويّ، وهي من الكثرة بحيث يستعصي حصرها، ولكن في ما ذكر من نماذج كفاية ودلالة على ما لم يُذكر.

الخاتمة

كانت هذه جولة في مغاني الشعر العربي، وقف الباحث من خلالها على نوع من التعبير بالشعر، وذلك من خلال الحوار بالشعر، وقد جمعَ نماذجها من جملة من مصادر التراث العربي والإسلامي، من عصور الأدب الأولى وحتى منتصف العصر العباسي، وبعد دراسة هذه النماذج خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

- المحاورة بالشعر تدلُّ على صفاء القريحة والتمكن من ناصية الشعر، كما تدل على مكانة الشعر في نفوس العرب واحتفائهم به.
- تنوعت طرق التحاور بالشعر بين التمثُّل بأشعار الآخرين، وارتجال الشعر، والإجازات الشعرية، والمكاتبات.
- تعددت المصادر التي حوت هذه المحاورات بين مصادر التاريخ والسِّيَرِ والتراجم والأدب العربي.
- لم ينحصر التحاور بالشعر على الشعراء المنشغلين بنظم الشعر المشهورين به، بل تعداهم للخلفاء وزوجاتهم وجواريهم، والأعراب الذين لم تُروَ لهم أشعار معروفة.
- تنوع الرد على المبتدئ بالحوار الشعري بين الموافقة في الروي والوزن وعدد الأبيات وبين المخالفة في ذلك، إلا أن معظم المحاورات كانت متوافقة في الوزن والروي.
- معظم الأشعار التي تمَّ التحاور بها اتسمت بقلة عدد الأبيات، إلا إن بعضها طال حتى بلغ سبعةً وعشرين بيتاً، وذلك بناءً على النماذج التي وقف عليها الباحث.

المصار والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (1417هـ / 1997م) الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1.
- أوس بن حجر(1979م) ديوانه، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط1.
- الببغاء: أبو الفرج (1834م) ديوانه، تحقيق: المستشرق وولف.
- التنوخي: المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود البصري، أبو علي (1398 هـ/1978م) الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت.
- الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (1403هـ1983م) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- جميل بثينة: جميل بن عبد الله بن معمر، (ب ت) ديوانه، دار صادر، بيروت، بلا ط.
- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ب ت) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا ط.
- حسان بن ثابت(1414هـ/ 1984م) ديوانه، شرح: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.
- الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (1422هـ - 2002م) تاريخ بغداد، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط1.
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي (1900م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ب ط.
- ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (1968) الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1.
- سيف بن عمر الأسدي التَّمِيمي (1413هـ/1993م) الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، ط7.
- العباس بن الأحنف (1373هـ/1954م) ديوانه، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- عبدة بن الطبيب (1391هـ/1971م) شعر عبدة بن الطبيب: يحيى الجبوري، دار التربية للطباعة.
- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (1415 هـ - 1995 م) تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن العلاف (1974م) ديوانه، تحقيق: صبيح رديف، مطبعة الجامعة، بغداد، ط1.
- أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان(1344 هـ/1926م) الأمالي، وضع وترتيب: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط2.
- ابن العمراني: محمد بن علي بن محمد (1421 هـ/2001 م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1.
- القاري البغدادي: جعفر بن أحمد بن الحسين السراج، أبو محمد (ب ت) مصارع العشاق، دار صادر، بيروت.
- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (1423 هـ) الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة.
- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري (1424هـ/2003م) البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط2.

- لبيد بن ربيعة (2004م) ديوانه، اعتنى به: حمدي طماسي، دار المعرفة، بيروت، بلا ط.
- لبيد بن ربيعة (1408هـ/ 1988م) ديوانه، شرح وتقديم: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- ابن المعتز: عبد الله بن محمد العباسي (ب ت) طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط3.
- محمد قاسم مصطفى وسناء طاهر محمد(ب ت) شعر الخبز أرزي في المظانّ، بلا ط.
- وكيع: أَبو بَكرٍ مُحَمَّد بن خَلَفِ بن حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ (1366هـ/1947م) أخبار القضاة، حققه وصححه وعلق عليه وخرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1.